أثر نيتشه

في العصر الحاضر

لابراهيم ابراهيم يوسف

ما كاد يبلغ نيتشه سن الرابعة والأربعين عام ١٨٨٨ حتى انتابهُ خبل عجز الطب عن علاجه ولم يمهلهُ الله بعد ذلك الا قليلاً ليتوفاه . وهكذا لم يتيسر لنيتشه ان يرى بنفسه مبلغ ما أحدثتهُ كتاباته من أثر شامل في التفكير الانساني ، الا أنهُ ما كان ليشك لحظة مدى حياته الخصبة في ان اليوم الذي تزوج فيه تعاليمه آت لا شكَّ فيه ، على الرغم من ان معاصريه أساءوا فهمه وتفرواتهُ ، فضى لذلك . وقد عبر في مقطوعة من الشعر عن مرهف احساسه قال فيها :

« انقضى عشرون عاماً — »

« ولما تصلني نقطة ماء ، »

« أو لسيم بليل، أو ندى حب، »

« — بلد لا مطر فيها . . . »

وكتب في شهر فبراير ١٨٨٨ : «على الرغم من اني بلغت الخامسة والاربعين من العمر ولي نحو خمسة عشر مؤلفاً ، بينها كتاب لامثيل لهُ هو «زرادشت» (Zarathustra) لم يتقدم شخص في المانيا لنقدها نقداً لهُ أي اعتبار ، بل ولا انتقد كتاب واحد من كتبي »

وكاد نيتشه صعوبات جمة ليجد ناشراً يطبع لهُ الجزئين الثاني والثالث من كتاب «زرادشت» واضطرَّ لان يطبع أعداداً محدودة من الجزء الرابع على نفقته الخاصة ، بعد ان أحجم الناشرون عن قبوله . أما اليوم فالمطابع في المانيا تخرج مئات آلاف النسخ من مؤلفاته في كل عام ، علاوة عن خطاباته التي نشرتها في ستة اجزاء . وكتبت شقيقته تاريخ حياته مفصلاً أروع تفصيل . وظهرت مئات الكتب تبحث في شخصيته وماهية تعاليمه ، ونشرت الجرائد والمجلات مئات آلاف المقالات عنهُ — ذلك في المانيا وحدها التي تكونت لهُ من قبل

هذا ما نفيهُ نيتشه من بعد وفاته عن طريق الكتابة والكتب ، اما عن طريق الخطابة فقد كان جورج برانديس (Georg Brandes) الناقد الدنيماركي العظيم ومؤرخ الادب العالمي اول من حاضر عن نيتشه محاضرات عامة ، وكان ذلك سنة ١٨٨٨ . وما اقبل عام ١٨٩٥ حتى بدأت المحاضرات العامة عنهُ تتعدد في مختلف البلاد . الاَّ ان المحاضرات الجامعية عنهُ لم تلق في المدارس العالية في المانيا الاَّ سنة ١٨٩٥ ، حيث بدأها الاستاذ اليوس ريل (Aloys Riehl) في جامعة فرايبورج (Freiburg) . وسرعان ما عمت الجامعات الالمانية هذا النحو ، حتى اصبحت المحاضرات عن نيتشه من المقررات الجامعية منذ ثلاثين سنة او يزيد . ولم يقف تيار هذه المحاضرات عند هذا الحد بل سرى في المانيا الى المدارس الشعبية العليا (Volkshochschulen) والمدارس الاهلية العليا (Freien Hochschulen)

كذلك ترجمت جميع اعماله لعدة سنين خلت بمختلف لغات فرنسا وانكلترا وبولونيا وايطاليا واسبانيا وانيوفان والسويد والدنيمارك وهولاندا وروسيا وتشكوسلافيا والمجر ورومانيا وبلغاريا واليابان وغيرها . كما ظهرت في تلك البلاد كتب ومقالات لا حصر لها عن نيتشه . كذلك اصبحت المحاضرات الجامعية عنهُ في تلك البلاد امراً مألوفاً

***

اما مدى تطور الحركة التي اوجدها نيتشه فالرأي فيها ينقسم الى وجهتين . فاصحاب المذهب الاول يرون ان الحركة قد بلغت عنفوانها في حياة نيتشه وهؤلاء ينظرون الى الحركة في شخص زعيمها . واصحاب المذهب الآخر يؤمنون بان الحركة لم تبلغ بعد منتهاها ، اذ الاثر العميق لتعاليم نيتشه الصحيحة لم يبدأ بالظهور في التفكير الانساني الاَّ حديثاً . وما من احد توفر على درس ومتابعة اثر نيتشه في الاتجاهات الروحانية والفنية والثقافية والاجتماعية لعصرنا الحاضر الاَّ ويقر بان الحركة النيتشية ما زالت سائرة في طريق التقدم المضطرد . ونظرة واحدة الى عدد الدراسات العلمية الخاصة ببحاث في تعاليم نيتشه ، تلك الدراسات التي تتزايد عاماً بعد عام في كل بلد من البلدان المتحضرة ، لدليل على تغلغل آرائه في المجتمع الانساني . ولحسن الحظ اخذ في النقصان على توالي الزمن عدد الذين اساءوا فهم نيتشه فشوهوا تعاليمه ورموه بالغلظة والفظاظة . ومن ثم تجلى الفيلسوف نيتشه كافضل مدافع ضد الاستبداد وجروح النفس التي لا تعرف لها رابطاً ولهذا كانت حملته ضد الانانية والذاتية والاثرة شديدة قاسية قسوة لا هوادة فيها — الى حد انهُ كان صارماً مريراً في نذيره ، اذ يقول :

« اعنى للذين يرتاحون لدعوى ان تشابههم الآلام والامراض والمحن ويصابون بسوء المعاملة

والتحقير والانتباذ من الناس — انني لهم احتقاراً يصيبهم في انفسهم ، وعذاباً يتولاهم لعدم الثقة بهم ، وان لا يجردوا من بؤس حالات طور الانتقال : هؤلاء لا أحمل عطفاً ، لاني اريد لهم شيئاً واحداً يثبت ان كان للشخص منهم قيمة أو لا — هذا تتبين القوة . قوة الصمد »

ولمثل هذا أسيء فهم نيتشه ، بل وانتهى سوء الفهم الى دوائر العلماء انفسهم فلم يفقهوا اذ ذاك نيتشه كناقد اخلاقي ، وداعية لمكارم الاخلاق ، اميل في بل تفكيره الا ان افراداً قلائل ملكت دعوات نيتشه الروحية الحارة عليهم كل مشاعرهم ، فراحوا يعملون لها

***

وكان نيتشه قد رأى ان الاسس الروحية للمجتمع قد اصابها التشقق وحل بها الانهيار وطرأ عليها التفتن ، فتثاقت هذه الاسس البالية وطبيعة الحياة ومن ثم بدأ بالاستعداد لبناء ثقافة انسانية شامخة ، جديدة في كل نواحيها ، اساسها الاول كبح النفس دون هوادة ، وترويضها على اقسى حالات الحياة ، والخروج بها من ذاتيتها الى التسامي . واساسها الثاني الاستعداد المطلق للتضحية من دون شرط لبلوغ الغاية — اي البطولة في أقوى مظاهرها . وبقي ذلك كله شعار الذين يعتقدون فيما بينهم وبين انفسهم انهم المطالبون باقامة هذا البناء الجديد ، مقتدين في ذلك بامامهم نيتشه ، الذي تمكن بحياة البطولة الفذة التي عاشها ، ان يشق طريقه الى صفوف القلائل الذين انوا للعالم بديانات جديدة . ومهما يكن من تعاليم نيتشه فهي على اي حال تحوي عوامل غاية في القوة لتربية خلقية جديدة

وليس هنا مجال التحدث عن كل ما انتجهُ سوء الفهم لتعاليم نيتشه من افكار تختلف بين الخطورة وعدمها . الا ان تفسير « قوة الارادة لبلوغ السيطرة » (Der Wille zur Macht) تفسيراً خاطئاً جرَّ كثيراً من الويلات على الناس . فقد فسرها مثلاً اعداء المانيا خلال الحرب العالمية بانها دعوة صريحة الى الحرب وغزو العالم . واشركوا الفيلسوف نيتشه مع المستعمر السياسي بريتشكة (Treitschke) والقائد العسكري فون برناردي (von Bernard) كدليل على ان الالمان بفلاسفتهم وساستهم وقوادهم الحربيين يبغون الحرب لامتلاك العالم . والغريب ان المانيا الهتلرية اخذت اليوم بما اخذ به اعداء المانيا خلال الحرب العالمية ولم تتورع في الاساءة الى نيتشه باظهار تعاليمه على غير حقيقتها . ولعل نيتشه لم يوصم بما هو اخطر من هذه الدعوى . واذاً « فالحاجة حقاً ماسة » — كما يقول الدكتور ماكس بران Dr. Max Brahn في مقدمة وضعها لكتاب « قوة الارادة لبلوغ السيطرة » لمؤلفه نيتشه — « لكي نشير الى انهُ ليس من المقصود هنا القوة الظاهرية التي تتجلى في ادوات الحرب ، بل هي القوة الباطنية للنفس

البشرية ، تلك القوة الهائلة التي تأبى الا ان تزايد ، ومن ثم تتوسع في سيطرتها ولا تمل في تنحية شجاعتها التي تتشعب قوية ثم تدفع بعظمة فتجد قوتها في سيطرتها على نفسها وفي اداء واجباتها نحو الآخرين »

ولنطرح تلك الدعاوى السخيفة التي ارادوا ان يلصقوها بنيتشه جانباً لتفقد اثره في التفكير الانساني ، سواء كانت ميادين هذا التفكير تشمل المسائل الفلسفية او الثقافية او الفنية او المسائل العلمية العامة . وسواء كانت المشكلة هي مشكلة التعليم او التربية او الحركة النسائية او قانون الاقتصاص او المشكلة الاشتراكية — فكل هذه وغيرها من الامور يجدها الباحثون على دراسة نيتشه واضحة في كتاباته . ولعل الاستاذ دكتور فرنر يجير (Prof. Dr. Werner Jaeger) قد اصبح غاية الافصاح عن معالم تفكير نيتشه في محاضرة له تكلم فيها عن « عمل الجامعة وموقفها من العصر الحاضر » فذكر فيها : « اما فيما يختص بنشأة تاريخ العلوم العقلية وتطورها اللغوي فان شأنها يزداد على توالي الايام »

ولا حاجة لمعالجة كل مسألة على حدة ، اذ يكفي ذكر اسم نيتشه الذي لم يكن فيلسوفاً بالمعنى المدرسي القديم ، بل كان يفيض بالحكمة لما كان عليه من قوة التنبؤ ، نظراً لالمامه بكل نواحي التفكير العقلي لتاريخ العالم ، وخاصة المامه بكنوز الثقافات الاوروبية

ومع ان نيتشه نشأ خلال العصر اللغوي الكلاسيكي ، فانه ارجع اول تهدم عظيم اصيب به العصر اللغوي والعصر التاريخي الى الفلسفة المدرسية ، التي كانت لا تعرف قيم الاشياء الا عن طريق التعاريف الصماء ، لا عن طريق التفسير والايضاح لاساليب الحياة الوافية اثناء تطورها التاريخي وتواصلها . فلما ان تبدل الرأي وتبدلت طريقة النظر الى الامور قضى الحال بتغير مقاييس الاشياء وموازينها ، فتبدل تبعاً لذلك الحكم على الاشياء وتقدير قيمها . ومن ثم بدىء بالنظر الى حوادث التاريخ والى الفن والادب من زاوية جديدة . ويكفي ذكر اسم الفيلسوف « اسفالد اشبنجلر (Oswald Spengler) صاحب كتاب « سقوط الغرب » (Untergang des Abendlandes) لنعرف مبلغ اثر نيتشه في العصر الحاضر . وما كان التفكير ليقود اشبنجلر الى مؤلفه الذي اثار به ضجيجاً في عالم الفكر لو لم يحرص على اقتفاء خطوات استاذه وامامه نيتشه

ولعل احصاء ما لنيتشه من آثار في مختلف نواحي الفكر الانساني يستلزم استيفاءها في مجلد ضخم . ولهذا يجمل بنا ان نكتفي هنا بالاشارة الى بعضها . فمن المشاهد ان العالم اليوم يتجه رأساً نحو المسائل الاجتماعية ، حتى اصبحت « مشكلة حياة الجماعة » لدى كل الشعوب المتحضرة رأس المسائل . ولا عجب ان تكون هذه اكثر المسائل تناولاً بالبحث ، واغناها بوفرة الذين

يتنافسون في دراستها ويتهافتون على استيعابها ، كيما يتمكنوا من تفسيرها ، وتحليلها والادلاء برأي في تكوينها ، وتصويب منهجها او تخطيئه ، وحصر عوامل نشأتها ، وشروط تطورها . وبالاختصار تحديد اصول الحياة الاجتماعية والتطورات الاجتماعية عامة واغراضها . ولقد نجد فيما أصدره ناشر اعمال نيتشه تحت عنوان « كلمات نيتشه عن الدول والشعوب » (Wietzsche-Woerten ueber Staaten und) كل الآراء التي بسطها نيتشه في مؤلفاته في هذا الموضوع الخطير . ويرجع فضل جمعها الى شقيقة الفيلسوف التي بقيت زهاء ثلاثين عاماً توالي درس نيتشه من جميع نواحيه . ولم يعد الامر مقتصراً اليوم على الاختصاصيين في معرفتهم ان الفضل في تقدم علم النفس (البسيكولوجيا Psycolohgie) وعلى الاخص « علم التحليل » النفساني على طريقة فرويد Frend Psychoanalyse راجع الى نيتشه ، الذي تمكن من السّور على نفائس هذا العلم اثناء بحثه عن الروح دون ملل ، واثناء ارتياده « العالم السفلي للارواح . واتصافاً للعلم لا بدَّ من القول بأن فرويد (Freud) يعد ووريث نيتشه الأوحد ، وان الفرد آدلر (Alfred Adler) ، وهو صاحب مذهب في علم النفس احد تلاميذه النجباء ، فقد رأى نيتشه في كتابه « قوة الارادة لبلوغ السيطرة » صوراً خالدة في عالم الارواح

والى جانب هذا يزداد في كل يوم الدليل قوةً على ان حركات الشباب بما فيها من طموح الى تكوين الشخصية العملية ، أخذت تعترف بنيتشه كداعية لهذه الحركات ان لم يكن بعثها وقائدها . فهو الذي وجه من انتقاده منذ نصف قرن او يزيد الى طرق التربية . ورأى ان الحاجة تدعو الى ضم الشباب وحشدهم في آتون واحد بدلاً من تشتتهم في هيئات مختلفة . ولقد أخذ بهذا الرأي أخيراً في بلاد مختلفة ذات نزعات فكرية متباينة . وليسنا هنا في صدد بحث اختلاف اتجاه الشباب في مختلف الشعوب فذلك موضوع آخر

***

واخيراً يصح لنا ان نتساءل كيف تمكن عقل شخص فرد من الاحاطة بكل هذه الافكار الخصبة خلال وقت قصير ؟

قد يكون هذا السؤال من صميم علم النفس في فصل التحدث عن البقرية والباقرة ، الاَّ انهُ لا يضيرنا الاجمال في الاجابة بانهُ ليس كل الفضل في اتاحه هذا يقاصر على قوة التفكير الحاد الذي يسر لنيتشه الاتاج القيم في نواحٍ عدة من التفكير ، بل تعدو هذه القوة قوة أخرى هي قوة حيويته الروحانية الباطنية ، التي جعلتهُ يتشبث بالحياة ليطوّي في ثنايا نفسه كل احتمالات الفكر والاحساس البشري ، ليبعث بها من جديد في حرارة وقوة ايمان تأخذ بالعقول والابصار